

عَجُوزُ الصُّورِ الْمُتَحَكِّمَةِ

للكاتب الأسباني بلاسيكو إيبانيز
بقلم الأديب محمد محمود دواره

— سيدى الضابط ! ليست المرأة
التي أمامك سوى بائعة من البائعات
المتجولات . أبيع أنواع الخضر على
عربة يد صغيرة وقد اخترت لنفسى
شارع « تربى » فجملته منطقة تجارية
منذ أربعين عاماً يا سيدى أقوم بهذه

المهمة وأحيا تلك الحياة و ...

حاول الرئيس أن يقطعها ولكنها استمرت
في حديثها غير عابثة بمقاطعته بل بدأ في صوتها
لون من ألوان الاحتجاج
— ليدعى سيدى الضابط أتحدث كما أشاء .
إن كل امرئ يمر عن نفسه بقدر طاقته ، وكل
إنسان يتحدث على قدر عقله

فاعتدل الرئيس في جلسته وألقى رأسه إلى الوراء
ثم تناول فتاحة الرسائل بين أصابعه وأخذ في
تحريكها بمنة ويسرة . لقد عودته الصبر مهنته ودرسته
ثروة التهمين أن يكون أكثر صبراً من أيوب .
وها هو ذا قد أعد نفسه للموقف الخطير !

— فى عام ١٨٧٠ ، أيام الحرب السابقة لهذه
الحرب الضروس القاعمة الآن ، كنت فى العشرين
من عمري ، وكان زوجى العزيز جندياً من جنود
الحرس الوطنى فى الوقت الذى حوصرت فيه
باريس . وحدث أن جرح هذا المسكين فى أثناء
موقعة من المواقع التى قامت بين الفرنسيين وأعدائهم
الألمان فبذلت ما تستطيع امرأة أن تبذل فى سبيل
إنقاذ حياته ، ولكنى اضطررت بعد ذلك أن أعمل
وأن أعمل بكل ما أوتيت من قوة كي أعيش وكى
يمش معى زوج عاجز عن العمل وابنة لم يهبنا الله
غيرها . ومات زوجى كما مات ابنتى — وأسنى —

رفع رئيس الشرطة نظريه متأملاً المرأة السنة
ذات الشعر الذى وشعه الشيب فأصبح ذا لون
رمادى عجيب . كانت واقفة فى تحاذل أمام مكتبه منذ
هنية ، ولكن سرعان ما اتخذت لنفسها مجلساً على
مقعد قريب منه غير مأمورة ولا منتظرة إذناً أو إشارة
وعاد الرئيس فألقى عليها نظرة فاحصة أخرى
ثم أخذ يفحص ورقة موضوعه أمامه ، هى تقرير
الانهام المقدم إليه من رجل الشرطة الواقف إلى جانبه
وقفة عسكرية نظامية وما لبث أن صاح موجهاً
حديثه إلى العجوز :

إحداث شغب فى دار من دور السينما . التفوه
بألفاظ ممينة فى حق السلطات الحاكمة . التمرد
بالسب والاهانة باللفظ والاشارة على أحد رجال
الحفظ . تلك هى التهم الموجهة إليك فما هو دفاعك ؟
أما هى فكانت فى تلك اللحظة تجيل الطرف
بين مكان الرئيس ومكان صريره وقد بدت عليها
علامات الدهول حتى كأنها لا ترى شيئاً أمامها

وانتهى الرئيس من توجيه التهم إليها فتعلست
عضلات وجهها وبانت فيه علام الدش والاستغراب
ثم أغمضت جفניה ثم عادت ففتحتهما كأنها تستيقظ
فجأة على أثر حلم عجيب وممست قائلة :

والواقع أنني كنت أحب مهنتي . وعلى قدر
لحافك مد رجليك . وإن كان هذا مبلغ فقري
وحاجتي أصرح بأنني لا أميل ولا أطمئن إلى تلك
الحياة التي يحياها هؤلاء الفنانون . أأست تراني
على حق يا سيدي ؟

وهنا أمسك الضابط عن الصغير واتجه إلى
المرأة وجعل يتفرد وجهها مهتما . لعله كان يعرف
الحفيدة، تلك الراقصة النابضة الذكر . ولعل هذا هو
سر ذلك التطور في موقفه

واستطردت المجوز قائلة :

— أما معبودي ؟ أما أحب الناس إلى وأقربهم
إلي قلبي وعاطفتي فقد كان حفيدي ألبير . كان
في ذلك الوقت الذي أحدثك عنه عاملاً في أحد
المصانع الكبرى . كان عاملاً من أنشط العمال
وأهمهم وكان يعيل إلى الدرس ومطالمة الكتب .
وكثيراً ما كنت أزوره على الرغم من كرهى الاختلاط
بالناس وإيثاري العزلة والانفراد بعيداً عن العالم .
وكنت كلما زرته جعلت هى الأول مساعدة زوجته
في أعمالها المنزلية وملاعبة طفله الوحيد الذى هو
حفيد ابنتى ياسيدي ! تصور مقدار ما في ذلك من
سمادة وهناء ! ليس كل إنسان يستطيع أن يحظى
بنعمة الحياة حتى يرى بعيني رأسه أولاداً أحفاده

وصمنت لحظة قصيرة ، سبحت في أثنائها في

عالم من الذكريات السعيدة ثم تمنت قائلة :

— ما كان أصدق تلك الأيام ياسيدي ! تلك
الأيام التي سبقت الحرب . قصدنا في يوم من أيام
الأحد إلى خارج المدينة ، وسط الريف الجميل كي
نحتفل بتعيين ألبير رئيساً لعمال مصنعهم؛ وجلسنا هناك

بعد قليل تاركه لي من بعدها حفيدين
وتوقفت المجوز لحظة عن الحديث حتى ترى
أثر حديثها في الرجلين . غير أنها لم تستطع أن
تقطع في الأمر بحكم أوقرار . فقد كان رئيس النقطة
يصغر صغيراً خافتاً وهو يقرب الفتاحة بين أصابعه
في عصبية ومهل بينما عيناه تتطلعان إلى سقف
الحجرة . وأما الشرطى الذى جاء بها إلى هذا المكان
فقد كان واقفاً في مكانه إلى جانب رئيسه تلك الوقفة
النظامية كأحسن ما يقف الجندي النظامي الذى
لا يختلف في سكونه وجوده من تمثال صخري

هل تسكت عن الكلام ؟ هل تحتج ؟ كلا
إنها لا تستطيع . . . ما من الحديث مفر ، وإذن
فلتتحدث ولتتحدث غير آبهة بموقف المستمعين منها
— أما حفيدتي جوليت فهي راقصة من راقصات
السارح ، وهى شخصية معروفة جداً ، ولا أحسب
إلا أن سيدي الضابط قد رأى صورته منشورة
في إحدى الصحف أو ملصقة على جدار من جدران
المدينة . نعم إننى لا أراها ولا ألتقي بها كثيراً إلا
في فترات متباعدة جداً ، ولكنى أحبها الحب كله .
وقد حدث مرة بينما كنت أدفع عربة خضري
وأسير بها في أحد الشوارع أن كادت سيارتها
الفخمة تصدمنى وثرونى مئى، ولكنى سكنت راضية
بينما صاحت بي هى :

— إنها غلطتك يا جدتى . لماذا تصرين على

احتراف مهنة البيع والشراء ؟

وماذا أفعل إذن يا بنيتى ؟ لقد كان حتماً على أن
أمتن هذه المهنة عندما كانت هى وشقيقها طفلين
صغيرين لأقوم بواجب الانفاق عليهما وسد حاجتهما .

على شاطئ السين حيث تناولنا الطعام والدم ،
هنيئاً مريباً ...

وبعد أسبوعين اثنين حدث ما كنا نخشى ،
إذ أعلنت الحرب ...

وفي هذه اللحظة أبدى الرئيس حركة من
حركات الضيق نسبتها المرأة إلى كرهه الاستماع إلى
شيء يمت إلى الحرب بصلة فقالت :

— نعم ياسيدى ، بيدك الحق ؛ فأنا أعلم أنه
قد صرت علينا أربع سنوات عجاف من جراء هذه
الحرب ، وأن سيرة تلك النكبة تذهب بجم أشد
الناس رزاة وثباتاً . وقد أخبروني أن المسارح
والجرائد السيارة ملئت هي الأخرى ترويد سيرة تلك
الحرب ووقائعها الدامية . أعرف هذا حق المعرفة
كما أعرف أن حكايتي تشبه حكايات الكثيرين
والكثيرات غيرى

انضم البير إلى إحدى الفرق المحاربة إثر
إعلان الحرب فلم أراه إلا بعد مضي عام عند ما عاد
من الميدان مرتدياً حلته العسكرية ، ثم عاد مرة
ثانية ، وأخيراً اعتدت احتمال أمر غيابه عن المنزل .
وكان لا يخاطر ببالي قط أن ألبير كغيره من الناس
يستطيع الموت أن يمدو عليه

غير أنه حدث في ذات يوم أن تسلمت وريقة
صغيرة لم أستطع بعد أن تلوت ما حوت من كلمات
إلا أن أصرخ بأكية مولولة كما صاحت مى زوجته
وبعد أيام قليلة أقبل واحد من زملائه في الفرقة
حاملاً معه بعض متاع حفيدي العزيز ...

وهنا أجهشت المجوز بالبكاء وخفت صوتها
خفوتاً ظاهراً وهى تقول :

— لم أراه بعد ذلك ياسيدى ، فقد قتلوه !

وكأنها عادت فذكرت وعدّها بأن تختصر
الكلام إذا ما تحدثت عن الحرب فبذلت جهد
الجسارة في التغلب على عاطفتها وتركت الكلام عن
الحرب فعلاً :

— وتعمل أرملة ألبير الآن في أحد مصانع
المواد المفرقة الواقعة في الناحية الأخرى من باريس .
ولست أرى ابن حفيدي إلا صرات قليلة متباعدة
إذ على كل إنسان أن يهتم لأمر معيشته

ولماذا أخجل من ذكر الحقيقة ؟ إننى مذمات
البير وأنا أكثر من التردد على إحدى الحانات .
وكلّ محاول إغراق همومه والتغلب عليها بالطريقة
التي يعرفها . لقد تجاوزت السبعين ، وفي هذه السن
وخاصة إذا كان الإنسان مثلي مضطراً إلى الاستيقاظ
مع الفجر وإلى الذهاب إلى الأسواق الرئيسية لشراء
بضاعته التي يبيع منها ، أرى أن كوبة صغيرة من
النيبيذ هي خير دواء . أليس كذلك ياسيدى ؟

صمت الضابط ولم يجب على سؤالها الأخير ،
وكان معنى هذا بطبيعة الحال أنه رآه سؤالاً
غير لائق

ولكنها استمرت في الحديث وبدأ في أسلوبها
وفي طريقة إلقائها شيء من الحدة والحرارة مما دل
على أنها كانت تقترب من النقطة الحساسة في
موضوعها .

— وفي هذه الليلة بالذات ، بعد الغروب بقليل
ذهبت إلى الحانة صحبة العم كرانكفيل . وقد اعتدت
أن ألتقي بهذا الرجل هناك في كل مساء ، وتركنا
المكان معاً حوالى الساعة التاسعة ، ولست أدري
لم وقفت أمام باب إحدى دور الصور المتحركة ؟ ولماذا
رغبت في الدخول ؟ لفتت نظرى صورة مكبرة تمثل

ليس من شأنه ولكنه أراد تمثيل دور البطل الذي يجيء لا نفاذ الفتاة النبيلة في اللحظة الأخيرة ، فألقيت عليه هو الآخر درساً لا أظنه ينسأه ...

وفي داخل الدار لازمني سوء الحظ أيضاً وقاد خطواتي الشيطان فبدأ جيراني يتذمرون ويتمنونني بأنني كنت أدوس أقدامهم ، حتى أن بعضهم لقبنى بلقب غريب هو « الحيزبون الغظة » والحقيقة يا سيدي أنني لم أدس أقدامهم وإنما هي نواياهم السيئة التي أوحى إليهم بهذا الادعاء؛ وأنا شخصياً لا أبغض شيئاً في الحياة قدر بغضى لمضايقة الآخرين .

وقد تبرعت امرأة سميكة كانت تجلس إلى جانبي بتشجيعي برميل الخمر من حيث الرائحة ...

برميل الخمر يا سيدي؟ هذا كثير. هذا لا يحتمل. عند ذلك اضطررت أنا الأخرى إلى إسماعها رأيي الخاص فيها ؛ فضج الجمهور واحتج ، ولكن احتجاجهم لم يكن منصباً إلا على وحدي دون غريمي بدعوى أنني أفسد المرض وأنني أشغلهم عن الشاهدة ، ولكن ذلك لم يسكنني قط . وإن كنت قد سكنت أخيراً فإنما كان ذلك لأن قصة الفتاة الأتراسية كانت قد بدأت ...

هي قصة مسلية جداً يا سيدي ، كنت أحب أن أقصها على مسامك ، لولا مخافة الاطالة والاملال ... وعلى كل حال لا داعي لذلك فلست أعرف كيف انتهت ولا كيف كانت خاتمتها . لم يتركوني أستكمل المشاهدة يا سيدي

وعاد الضابط مرة ثانية إلى التأمل في سقف الحجرة وإلى الصغير محاولاً الترفيه عن نفسه — وكان هناك سيد يجلس خلفي تبدو عليه

فتاة الأتراسية جميلة ، أمسك بها جندي ألمانى ضخيم الجثة كأنه الحيوان المفترس بينما أخذت المسكينة تبذل أقصى مجهود بدني للدفاع عن نفسها والخلاص من قبضته . وأنا أحب القصص التي من هذا النوع؛ ولعل ذلك يرجع إلى أني من أشد الناس تحمساً للوطن . ومرجع ذلك إلى أني شهدت حربين مختلفتين ؛ ولكن دعنا من هذا ولنترك الحديث عن الحرب ...

ورفض الم كرا تكفيل أن يصحبني في الدخول إلى الدار مع أني عرضت عليه عن تذكرته . والواقع أنني لا أعرف أي الأشياء يحب هذا الرجل وأي شيء يكره ؛ فقد تعود أن يقابل كل ما يلقى بابتسامة واحدة لا تتغير ولا تتبدل

وإذن فقد دخلت الدار وحدي وكان هذا لسوء حظي . ألم يلاحظ سيدي ظاهرة عجيبة في حياة الانسان ؟ ألم يلفت نظره مرة كيف تعادي الظروف أحد الناس باستمرار ؟ وكيف أنه كلما حاول مقصداً انقلب إلى نقيضه ، وكلما جهد في سبيل جلب السرور إلى قلوب الناس آذاهم وآذى شعورهم وعواطفهم حتى كأنما الشيطان بنفسه بقوده ويوجه خطاه وحركاته ؟ ولم يتنازل الضابط بالاجابة على هذا التساؤل أيضاً

— تشاجرت مع بائنة التذاكر من أجل قطعة من قطع العملة أدعت هي أنها مزيفة ولم تقبلها بحال من الأحوال ، وأصررت أنا على أنها عملة جيدة لا عيب فيها ؛ ولكنها لم تستمع لكلامي فأغضبني هذا غضباً شديداً وقلت لها إنها لا تعرف التميز بين أنفها وبين ...

وعندئذ تدخل حارس الباب بيننا ، مع أن هذا

دلائل المعرفة والعلم بما يتعلق بالصور المتحركة. سمعت هذا السيد يبدى رأيه في الفلم المروض لبعض جيرانه في صوت خفيض . وعلى حين غرة تتقدم الفتاة اللازاسية إلى مقدمة الستار محاولة الفرار من مطاردها . ثم يبدؤون بعد ذلك مباشرة في عرض مناظر الخنادق المزدهجة بالجند ومطابخ المسكرات والمدافع

قال السيد العالم بشئون الصور المتحركة الجالس خافى : إن هذه المناظر في الواقع قطعة من التاريخ، وإنها ... ماذا أقول ؟ هي مقتطفات واقعية أضيفت إلى صور الفلم . هل استطعت التعبير ياسيدى ؟ هذه الإضافات أشبه شيء بقطع من القماش الجديدة التي ترفع بها الأثواب البالية لتبدو أحسن منظرًا . ولكنى لا أعرف شيئاً ألبته عن الصور المتحركة ، وغاية ما كنت أشعر به هو أن ما أرى ظريف طريف ، بل بانغ الغاية من الطرف والطرافة وبعد ذلك ظهر على الستار منظر يمثل خندقاً من الداخل ، ورأينا جنداً كثيرين في وقت راحتهم، وكان أحدهم آخذاً في تحرير خطاب وهو مسند الورقة على إحدى ركبيه بينما كان ظهره متجهاً نحو النظارة ، ثم أخذ في تحريك رأسه قليلاً قليلاً حتى ظهر وجهه ثم ابتسم للمتفرجين

حينئذ فتحت عيني جيداً وجملت أدق النظر . إننى لست عمياء ... ولا شك أننى أستطيع تمييز ما أمامى من مرثيات ... كدت أصبح بكل ما فى حنجرتى من قوة ... إنه حفيدى

ونهضت من مكاني واقفة كي أتمكن من رؤيته جيداً . وحاولت أن أسرع إليه مهرولة فأحتضنه وأشبهه ضاً وتقبيلاً . وقد يكون حدث فى أثناء

ذلك أننى دهست بمض أقدام الناس فى خشونه ، أو دفعتهم أمامى فى شدة، ولكن عذرى فى ذلك أننى لم أكن قط فى كامل شعورى . وهاج المتفرجون وماجوا ، وتدخل عمال الدار فى الأمر فاعترضوا طريق نحو حفيدى وأحاطوا بى إحاطة السوار بالمصم، ولم يقبل أحد أن يستمع إلى كلامى؛ إذ كان الجميع يعتقدون اعتقاداً جازماً أن ما حدث إنما كان من فعل الحجر فى رأسي ، وبدأوا فى دفعى نحو باب الخروج فى قسوة وشدة حتى اضطرت إلى استعمال قبضة يدي فى الدفاع عن نفسى . وجاء الشرطى الواقف الآن إلى جانب سيدى ، والذى يقولون إننى سبيته وأهنته وعضضته فى إحدى يديه مما لا أدري كيف أمكن أن يصدر عني . ينحيل إلى أننى كنت فى حال هى إلى الجنون أقرب منها إلى العقل . وجذبني الشرطى إلى الخارج وجاء بى إلى هذا المكان دون أن يسمح لى بالكلام أو شرح الموقف، وبذلك لم يتج لى فرصة البقاء لمشاهدة ألبير وتلا ذلك فترة سكون طويلة كانت المعجوز فى أثناءها تسكب الدمع من عينيها مدراراً إلى أن قالت: — وهكذا التقيت بحفيدى ألبير أخيراً

وانحنى أمام الضابط انحناء الخضوع والامثال وقالت :

— استمع السيد عذراً وعفواً
ثم انحنى مرة أخرى أمام الشرطى الذى ساقها إلى ذلك المكان وقالت :
— كما أطلب عفوى سيدى

ثم وقفت وقفة الدل مطأطئة الرأس مشبوبة اليدين على الصدر، مرخية الميتين نحو الأرض وظلت صامتة وهى تشعر فى قرارة نفسها أن دفاعها عن

نفسها لا بد بالغ إلى قلب الضابط بينما كانت الدموع تهمر من عينيها فتبسط جارية على وجنتيها المجمتين

ومكث الضابط في صمته لحظة ثم نظر إلى الشرطي الواقف إلى جانبه وهو رجل ضخم الجثة يحمل على صدره صليب الحرب وقد تحلت ذراعه بشرائط تدل على طول المدة التي قضاها في الخدمة، فبادل الشرطي النظر وقد كان يستمع إلى حديث المرأة في حياء تام طول هذه المدة ولم يبد منه ما يدل على التأثر كما لم تبد منه حركة إلا قيامه بفتل شعرات شاربه صرات . وكانما كانت هاتان النظرتان كافيتين لتنام التفاهم بين الرجلين ، إذ أمسك الضابط بعد ذلك بالتقرير الذي قدمه الشرطي إليه فناوله إياه فلم يكذب يتناوله حتى أخذ يمزقه دون أن ينبس ببنت شفة

وقال الضابط :

— في استطاعتك الانصراف يا سيدي المحترمة وكانما استيقظت المرأة من حلم آخر . حقيقة أنهم يخلون سبيلها ؟ أستطيع الآن أن تذهب حيثما تشاء ؟ ما أشد رحمتهم ! ... ولكنها قبل أن تهم بالخروج اتجهت نحو الضابط وقالت :

— وهل أستطيع أن أعود إلى دار السينما ؟ هل يسمحون لي برؤية حفيدي مرة واحدة في كل ليلة ؟

فلم يسع الرجلين إلا أن يضحكا من سذاجتها ، وإلا أن يقولوا لها إنها تستطيع أن تفعل ذلك كلما أرادت

وخرجت أخيراً من مراكز الشرطة دون

أذى ، ولكنها كانت تشعر بالحجل ولا تميل إلى رؤية أحد من معارفها في ذلك الوقت حتى لا يلتبس عليه الأمر ويظن بها الظنون . وعند ما وصلت إلى الشارع العام تلفتت يمنة ويسرة وأمامها وخلفها ، فلما لم تر أحداً جمعت أطراف ثوبها في كلتا يديها وأسرعت المدو بقوة الشباب بينما أخذت عضلات وجهها في التمدد والتقلص تبعاً لتردد أنفاسها وقد خرجت بعض خصلات من شعرها الأبيض من تحت القناع المزركش الذي يغطي رأسها . وصلت إلى دار السينما فرأت الجموع الأخيرة من المتفرجين يخرجون والهال يقومون باطفاء الأنوار ورفع الصور الموضوعة في الخارج فوقفت على مقربة من الباب ترقب حركاتهم وهي ساكنة لا تتحرك ، مستندة بذراعها على الحائط وأسندت رأسها بيدها الأخرى وأخذت تبكي بشعور المرأة التي فقدت طفلاً عزيزاً وتمتت أخيراً محدثة نفسها :

— يا إلهي ! ... أملى الآن أن أنتظر حتى الغد؛ أنتظر حتى الغد لأرى صغيري المحبوب ...

وفي الليلة التالية دخلت المرأة دار السينما أدب جم . وعند ما اقتربت من نافذة بيع التذاكر أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى حتى تتحاشى رؤية العاملة لها إياها ولكن حارس الباب رآها واستطاع أن يميزها فاقترب منها وقال :

— لا . لا . هل أتيت الليلة لتكرري فضيحة الأمس ؟ لا تذكرة لك يا سيدي

ثم حاول إخراجها ... ولكنها نظرت إليه ضارعة وقالت :

تلك اللحظة ما حدث لها بالأمس فارتعدت فرقا .
إنها لو سأحت الآن أو تكلمت لرى بها الناس إلى
الخارج مرة ثانية ولحرموها نهائيا من ارتياد الدار
وبذلك يتم حرمانها إلى الأبد من رؤية جنديها الباسل
دفعها الخوف إلى الورااء وأسكن حركاتها ولخص
عواطفها المتباينة ووجداناتها الشتى فى بضع قطرات
من الدموع سالت على خديها ، ولكى ترفه عن
نفسها بعض الشيء أخذت تتعمق فى صوت
خافت إلا أنه عميق لأنه خارج من صميم قلبها ،
وكانت عينها ترقبان القصة من فوق الستار
— أليير يا صغيرى ... هانا أمامك ... ألا
تعرفنى ؟ سأحضر لمشاهدتك كل مساء ... فى كل
مساء يا أليير

وفى الليلة التالية قل بكأوها عن ذى قبل فقد
بدأت تعتاد مشاهدة هذه القصة
وعند دخولها الدار تحدثت إلى حارس الباب
كما لو كان صديقا قديما . قالت وهى تحاوره :
— أشهدت كيف أجاد حفيدى اللعب ؟
فلم يسمع الرجل الذى لم يكن يعير حديثها كثيرا
من الاهتمام إلا أن تبادل نظرة مع عاملة « شباك
التذاكر » وكأنه كان يسألها عن رأيها فى مبلغ حق
هذه المجوز

وعادت المجوز إلى مسكنها ولكنها لم تستطع
النوم إلا بعد جهد جهيد ... كان ضميرها يعذبها
ويؤنبها ... إنها أنانية ... نعم أنانية محبة لذاتها .
ألم تستأثر بكل هذه اللذة التى اكتشفت مصدرها
لنفسها بينما كان لأليير فى عالم الأحياء أناس آخرون

— دعنى أدخل يا سيدى الفاضل ... لقد
أتيت لأرى حفيدى وأعدك وعدا صادقا أننى لن
أتسبم الليلة . فكان لحديثها الساذج هذا أثره
فى الرجل جرده من كل سلاح ، فضحك كما ضحك
عاملة التذاكر وسبحا لها بالدخول ، فأنحنت أمامهما
شاكرة كما أنحنت أمام الشرطى الواقف أمام الباب
وعند ما صارت داخل المكان أبدت من
الأدب الجلم ما لفت لها الأنظار ... صارت تحيى
كل من تلتقى به وتنحني أمام الذين تعرفهم ومن
لا معرفة لها بهم حتى تضايق الجميع وصاروا ينظرون
إليها شزرا وكأن نظراتهم تنطق بمعنى واحد هو
الاشمئزاز

وانكشفت فى مجلسها محاولة شغل أقل فراغ
ممكنا حتى لا تضايق جيرانها ، ثم جمعت تنظر
حواليها نظرات مختلطة ترى تأثير ذلك السلوك فى
المتفرجين هل حاز قبولهم أم لم يحزه ؟

— وبدأ العرض فنسيت العالم بأجمعه وبكل
حقائقه ؛ وظهر الجندى الألمانى وبدأ فى مطاردته
للفتاة الأتراسية وأخذ موضوع القصة يتعمق ؛
وسرعان ما ظهرت الخنادق وظهر الجندى
بظهره المتجه نحو النظارة وهو منهمك فى كتابة
خطاب وقد استند على إحدى ركبتيه ثم أتجه بوجهه
ناحية النظارة ، فلم تملك المسكينة أن همست :
— أليير ... أليير

كان عليها أن تبذل جهدا هائلا لى
تتمكن من كبت عاطفتها . فتحسرت تلك
الصرخة فى حنجرتها ، وكادت تصل إلى حالة من
اليأس من التغلب على شعورها لولا أن ذكرت فى

كان وجه الأرملة شديد الشحوب ، وكانت عيناها أكثر اتساعاً مما عهدتهما المرأة ، قد أحاط بهما وتحيط هالتان سوداوان . وما كادت تسمع خبر ظهور زوجها ألبير في دار الصور المتحركة بمدقته حتى استخرطت في البكاء وقالت في صوت مختنق :

— كيف يمكن هذا يا جدتي ؟

وتكلمت المجوز محاولة الشرح والايضاح ، ولكن الأرملة حاولت عبثاً أن تفهم ما تقول : وأخذت المجوز تردد كلمات الرجل الذي جلس خلفها في دار السينما وتكرر شرحه الذي لم تكن هي نفسها تفهم منه حرفاً واحداً ، وأخيراً ختمت حديثها قائلة :

— دعينا من هذا كله ... الواقع أن البير يظهر الآن على ستار السينما ؛ فما عليك إلا أن تحضري أنت وولديك لرؤيته ؛ وسوف أنتظركما هذا المساء

قالت هذا القول في لهجة يخيل لسامها أنها صادرة من فم ملكة من الملكات تدعو بعض أتباعها ورعاياها للشول بين يديها في القصر الملكي .

— وسوف تجدداني في انتظاركما عند باب الدار الواقعة في الناحية الأخرى من باريس

وافترقا بعد ذلك الحديث القصير على أن يلتقيا في المساء .

وفي الموعد المحدد وصلت الأرملة وولدها فكان لذلك وقع حسن على المجوز طربت له كل الطرب ؛ وكانت الأرملة ترتدي في ذلك الوقت ثوباً أسود جديداً كما ارتدى الطفل أحدث أثوابه وعند ما حاولت الأرملة أن تبتاع تذكار الدخول

غيرها بهمهم أمره ويسعدهم أن يروه بمد أن فقدوا الأمل في رؤيته مرة أخرى ...

وما كادت شمس اليوم التالي تبرز حتى أسرع المجوز إلى السوق فباعت خضرها دون أن تهتم كثيراً بمبلغ ما تصيب من ربح ، ووضعت العربة في مكانها في وقت مبكر بالنسبة للوقت الذي اعتادت وضعها فيه في الأيام العادية ، ثم سارت ميممة ضواحي باريس إلى أن انتهت إلى المكان الذي تقصد . وهو مكان يكاد يكون مظلماً لكثرة ما حوى من مصانع ضخمة ذات مداخن هائلة وأبنية كأنها السجون هي التي بأوى إليها عمال تلك المصانع هم وأسرهم

واقتربت من أحدها كن سائلة عن زوج حفيدها وابنها ، فأخبرت بأن الطفل بالمدرسة وأن أمه تعمل في المصنع ، فقصدت توالاً إلى ذلك المصنع ، غير أنها ما كادت تصل إلى هناك حتى منعها الحارس — وهو جندي سابق — من الدخول قائلاً إنه ممن المستحيل عليها أن تدخل ، لأنهم يقومون الآن بصناعة الآلات الحربية وأطلت المجوز برأسها لترى ما ذا في داخل المصنع قبل أن تترك الحارس فوقع نظرها على جملة نساء منهمكات في العمل وهن رأحمت غاديات وقد ارتدين ملابس طويلة من لون واحدات سراويل ضيقة قد التصقت بسوقهن وأغاذهن فجملتهن أشبه بالنسابقين من راكبي الدراجات .

ودوى في المكان صوت جرس ضخم مؤذناً بحلول وقت الغداء لهاملات المصنع وعماله فخرجوا جميعاً واستطاعت المجوز أخيراً أن تلتقي بأرملة حفيدها وأن تتحدث إليها

السن التي نسمع فيها عن الموت دون أن نعرف
كنهه أو حقيقته

ولقد استطاع أن يعرف الجندى الذي ظهر
على الستار متجهاً بوجهه البتسم نحو النظارة ...
نعم لقد عرفه فقد رآه أخيراً في منزله في نفس
الرداء الذي يرتديه الآن ، ولكنه لم يمد مرة أخرى إلى
المنزل فلماذا لم يمد ؟

وقف في مكانه ثم مد ذراعيه الصغيرين نحو
الصور المتحركة أمامه وتتم في صوت منخفض قائلاً

— بابا ... بابا ...

ولكن أمه وجدته سرعان ما أجلساه في مكانه
وأمرته بالصمت وقلباها يكادان يتفطران من
الغم والأسى

وعند ما خرجوا من الدار قالت المعجوز :

— غداً نلتقي في هذا المكان مرة أخرى

— ولكنني أقيم في أقصى حدود باريس يا جدي
ومن واجبي أن أستيقظ مبكرة للذهاب إلى المصنع
ولكي أعد الطفل للذهاب للمدرسة . إن الحضور
مرة أخرى إلى هذا المكان بكفني ما لا طاقة لي
به ... ثم ما فائدة الحضور مرة ثانية ؟ لن يموت
أبيري إلى الحياة ... وهذه الصور تقتلني قتلاً بطيئاً
فرمقتها المعجوز شراً ... لقد طالما شكت في
أن هذه المرأة الصغيرة لا قلب لها ... وما هو
ظنها بتحقيق

— أجل ... بيدك الحق يا بنية . إن الإنسان
الوحيد الذي يذكر أبيري هو جدته المعجوز البائسة

وفي اليوم التالي كان الحزن مستولياً على المعجوز

اعترضت المعجوز واحتجبت في قوة وحزم قائلة
— ماذا تمنين بتصرفك هذا ؟ سأدفع أنا من

التذاكر ، إن أصحاب الدار يعرفونني حق المعرفة
وبعالموني كفرد من أفراد أسرهم

ولكي تبرهن على صدق قولها تبادلت بعض
كلمات المزاح مع عاملة التذاكر ثم صاغت حارس
الباب — عدوها القديم — وقدمت إليه سيجاراً
رخيصاً اشترته منذ دقائق لهذا الغرض وهي
تقول :

— الهدايا الصغيرة تحكم أواصر الصداقة .

أرجو يا صديقي العزيز قبول هذه الهدية النافذة
وفي داخل الدار حيث أحد المال تحية الصديق
لصديقه الحميم ، ثم قالت وهي تنفجعه يعض القطع
النحاسية :

— هذه هي زوج حفيدي الذي يعمل عندهم

في الروايات وهذا هو طفله

وأخذ الجميع مجلسهم في المقاعد التي أرشدهم
إليها العامل ، وبدأ عرض القصة على المتفرجين ؛
وبدأت سلسلة غاؤها وأوهامها . كانت تخشى وقوع
حادث يصدر عن الأرملة الجالسة إلى جانبها إذا
ما ظهر أبيري على الستار . غير أن الأرملة كانت في
الواقع من الذين يحتملون آلامهم في صمت وفي
شجاعة . جلست ترقب المناظر التي تتوالى أمامها
بميتين ذاهلتين ثبتت حدتها فصارتا أشبه بميني
مدمنى المورفين ، وجملت تضغط شفيتها بأسنانها
محاولة كبت عواطفها النائرة وقد جرت مداً معها على
وجنتها في اطراد

أما الطفل فكان يشاهد الرواية في برادة تلك

الآن ، ولقد علمته الحياة ألا يهتم بشيء في الوجود
وأن ينظر إلى الخطير من الأمور نظرتة إلى التافه منها

ضغطت المعجوز الذر الكهربائي ووقفت
خلف الباب الضخم ترتب ثوبها الحريري الأسود
متأملة إياه لتستوثق للمرة الأخيرة من ملائحته لها
ثم تمنت قائلة :

— لا بأس . إنه بلائعني تماماً كما لو كان قد
صنع لي خصيصاً لا لا بنتي ، ثم إن القماش الجيد
سرعان ما ينبي عن نفسه

وكان رأسها عارياً ولكنها لم تكن ترى في ذلك
من ضرر لأنها كانت دأمة الفاخرة بشعرها الأبيض
الناعم ...

ومرت لحظة قصيرة أعقبها صوت خطى مقبلة
نحو الباب . فلما فتحت ظهرت خلفه فتاة في مقبل
الشباب ما كادت المعجوز تراها حتى شمعت
بالاستمزاز من حركاتها الصبيانية الطائشة ومن
تلك النظرات الحادة التي كانت تلقها عليها من
أخص القدم إلى شعر الرأس

— أيتها المعجوز الطيبة القلب ! إن كنت قد
أتيت تستجدين أو تطلبين المساعدة من سيدة المنزل
فاني آسفة أن أقول لك إن السيدة ليست هنا وأن
عليك أن تكلفي نفسك عناء زيارتنا في يوم آخر

لاشك أن هذا الحديث أثار المعجوز وأغضبها
فجمعت رفق الفتاة بنظرات حادة كما بدأت تتمم
مرردة بعض الشتائم الشديدة، ولكنها توقفت عن
ذلك عند ما شمعت بيد تمسك إحدي كفيها والتفتت
إلى وراء لترى الشخص الذي اجتراً على الإمساك
بها فوق نظرها على سيارة نخمة قد وقفت عند

استيلاء تاماً ، فما كاد الليل يسدل ستاره على الكون
حتى أخذت تطوف في الطرقات باحثة عن المم
كرانفيل الذي اشتهر بين معارفه ولدائه باسم
« فيلسوف السوق » وبأنه لا يهتم بشئون الآخرين
فقد كانت تعلم أن الرجل على الرغم من اشتهاره
بهذه الصفة يعطف عليها ويهتم بأمرها ...

وفي الحانة المهددة جلس الاثنان وأخذت
المعجوز تروي قصتها الاخيرة وأفهمته أنها قد
تغيرت تغيراً كلياً بعد ذلك الحادث الفذ الذي
جد في حياتها ، حتى سارت امرأة أخرى غير التي
كان يعرفها من قبل ، فهي تبسط يدها كل البسط
وتأقي بالنقود هنا وهناك بنير حساب . وهي تذهب
إلى السوق متأخرة فتشتري بضاعتها بأغلى الأثمان
لتبيها بعد ذلك بأبخسها غير حاسبة حساباً للخسارة
التي تلحق بها ، قال الفيلسوف :

— إنك تحطمين نفسك بنفسك . إنك
تنتحرين . إن تصرفك هذا معناه ضياع رأس مالك
قال هذا القول ولكنه لم يمتنع عن قبول
أكواب الخمر التي كانت المعجوز تطلبها له

وظلت المعجوز جالسة إلى جانب المم كرانفيل
إلى الساعة الثامنة مساء ثم نهضت فجأة وقالت :

— إلى اللقاء يا كرانفيل فاني ذاهبة الآن
لأخذ حفيدتي معي كي تشاهد أخاها وهو يمثل
في السينما

— ولكن حفيدك قتل
— أعرف أنه قتل ... ولكنه مع ذلك يمثل
في السينما

فهز الرجل كتفيه استخفافاً ولم يتكلم إذ كان
يمتد أن الكلام في هذا الموضوع لا فائدة منه

مفتريات... ترهات... إنها أطيب فتيات العالم قلباً وأطهرهن سريرة... غير أن هذا الحماص الزائد في الدفاع عن جوليت سرعان ما اعتراه بمض الفتور عندما لاحظت المعجوز برود الراقصة وفتورها لدى سماعها قصة الاكتشاف العظيم الذي اكتشفته في دار الصور المتحركة

كان جوابها على خبر هذه المفاجأة الرائعة أن قالت — عجيب... هذا عجيب في الواقع !

ثم تنبأت على أثر ذلك بما تريده المعجوز منها فقالت: وأنت الآن قد أنيت يا جدتي تريدني أن أصبحك لرؤيته أليس كذلك؟ حسن! سأذهب معك الليلة، ولكن على شرط أن تبقي معي هنا لتتناول طعام العشاء معاً... ولعل سيرة ألبير قد ذكرت الفتاة الراقصة بأمور أخرى فقد استأنفت الحديث قائلة: — نعم يا جدتي لم يكن ألبير هو الوحيد الذي ذهب للحرب. هناك آخرون لا يزالون على قيد الحياة، وأمر هؤلاء يبعث على القلق ويشير روح الكره لهذه الحرب أكثر من أمر الذين استشهدوا وانتهى أمرهم

وكانت الراقصة تفكر في هذه اللحظة في صديقتها أوعشيةما وهو شاب غني جميل لم تره معجوز الأسواق ولم تعرفه، وكانت الاشاعات ترشحه للزواج من جوليت وأزف موعد تناول الشاي فلم تستطع أن تتحدثا بأكثر من ذلك إذ بدأ صديقات جوليت وزميلاتها يفدن على المنزل زرافات ووحداً وكلمن قد ارتدين أغر الثياب وأثمنها قيمة وأكثرها أناقة؛ وأمام ألوانها الباهرة ودقة صناعتها بهرت المعجوز بل أخذت عقيدتها في حفيدتها وسلوكها تزعزع

الباب الخارجي للمنزل وهذه التي أمسكت بها هي السيدة الأنيقة صاحبة السيارة والتي هبطت منها لتضم المعجوز إليها وهي تقول: — جدتي... جدتي...

وكانت أولى الملاحظات التي لاحظتها المعجوز أن حفيدتها الراقصة الكبيرة كانت تلبس ثوب الحداد... نعم إنه ثوب فاخر غالي الثمن، ولكنه ثوب الحداد على كل حال... ولا شك أن الراقصة لم ترد هذا الثوب إلا حداداً على وفاة أخيها ألبير.. وعندما أصبحت المعجوز داخل المنزل صارت تتأمل أثمانه وتحفه بعين الاستغراب حتى ألوان الجدران المركبة كانت تستلفت نظرها وتستدعي تأملها.

وما كادت تذكر اسم ألبير بعد ذلك أمام الراقصة حتى تحركت عاطفتها وبدا عليها التأثير الشديد وترقرقت الدموع في عينيها وهي تقول:

— كم كانت خسارتي فادحة بفقده. نعم إننا لم نكن على صلة عائلية دأمة ولم نكن على اتفاق لأنه لم يستطع أن يفهم كيف أحيأ ولكنني كنت أحبه حباً عميقاً مكبوتاً...

وهنا تناولت صورة شمسية كانت موضوعة على منضدة صغيرة قريبة منها وأدنتها من فمها ثم طبعت عليها قبلة حارة... ولم تكن سوى صورة ألبير.. كم أثر هذا الوفاء وهذا الاخلاص في قلب الجدة حتى أنها قالت محدثة نفسها:

ومع هذا يتقولون الأقارب ويزعمون المزاعم الخاطئة عن جوليت من أجل المهنة التي اختارتها لنفسها والأسلوب الذي رسمته لحياتها... أكاذيب...

أى طفلة صغيرة تخشى المجتمعات إذا أرادت الفرار من مجتمع ما ... إلى أن وصلت أخيراً إلى غرفة الطعام ... وهناك استطاعت أن تستجمع شجاعتها المفقودة فهضت من مكانها ملقبة عنها الخوف جانباً وسارت في الغرفة التالية حيث التقت بالخدام التي لم تحسن إقادها فرمقتها شرراً وهي تقول :

— قليلة الأدب !

وشمرت بالارتياح عندما انتقمت من الخدام بهذه الكلمات وسارت في طريقها إلى أن هبطت بضع درجات أدت بها إلى المطبخ. وهناك استطاعت أن تقدر روعة حفيدتها أكثر من ذي قبل عندما شاهدت الأواني الكثيرة اللامعة التي كانت كل آنية منها تتوهج في ضوء المصباح كالألب وهناك رحبت الطاهية بزارتها أجل ترحيب فوضمت على المائدة زجاجة من النبيذ وكوبيين وأخذتا في الاحتساء وكل منهما تسرد أحزانها ومتاعبها في الحياة على الأخرى . وفي أثناء ذلك أخرجت الطاهية صورة شمسية من أحد جيوب ثوبها فقبلتها ثم قدمتها لزارتها وهي تقول :

— صورة ولدى الذى يعمل في الصيد في جبال الألب . فألقت عليها المرأة المجوز نظرة عابرة ثم أخرجت هي الأخرى صورة من بين ثنابا ثوبها وقدمتها للطاهية وهي تقول :

— حفيدى الذى قتل في الحرب والذى يظهر الآن كل مساء في دار الصور المتحركة

فلم تكذ الطاهية تسمع هذا الكلام حتى تحركت في مقدمها حركة عصبية وقد اتسمت حدقتها عينها إذ أيقنت أن المرأة المجوز الجالسة أمامها ليست سوى خمية من نحميا الجنون، ولكنها لم تبد

وأبدى الجميع إعجابهم بثوب الحداد الذى ترتديه جوليت حتى أن إحداها ذهبت في إعجابها شوطاً بعيداً إذ قالت مازحة :

— ألا يعد من حسن الحظ أن يموت للانسان أخ أو أخت فيستطيع أن يلبس حداداً عليه ثوباً جميلاً كهذا ؟ إن اللون الأسود لون رائع وهو يبدى محاسن المرأة بشكل أروع مما يبدىها أى لون آخر وبدأن جميعاً يدخن ثم ارتمين بأجسادهن على الأرض متكئات على وسائد بعضها من الحرير الخالص وبعضها من فراء الديبة الثمينة ، ومد البعض منهن أطرافهن كالحيوان البليد غير عابثات بما يمرضن للأنظار من أجزاء في أجسامهن يجب أن تكون مستورة دائماً وقد شبك البعض الآخر أيديهن على ركبن المرفوعة وأسندن ذقونهن عليها كان الشاي ومعداته موضوعاً في آنية فنية من الفضة على الأرض بين الأجسام البشرية الطرية، وكان الصباح الخافت يرسل شعاعاً خفياً من النور الأزرق البسديع . وقدمت جوليت جدتها إلى الحاضرات في شجاعة قائلة :

— هذه هي جدتى التي تبيع الخضار كل صباح في شارع تربى ... إننى أفر بأسلافي كما يفخر أى معاصر من نسل الصليبيين بأجداده

وقابل الجميع حديثها هذا بالقهقهة ومرت فترة قصيرة نسي الجميع بعدها أمر المجوز

أما هي فلم تكن راضية عن هذه الأفعال، ولم تسكن مطمئنة إلى هذه التصرفات ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تخشى الاساءة إلى شعور حفيدتها فكانت تنتقل في حذر من مقعد إلى مقعد كما تفعل

باريس في مهمة خاصة وليس لدي من الوقت سوى أربع وعشرون ساعة ...

ولم يستطع أن يتم حديثه إذ كانت جوليت قد طوقت جيبه وارتعت على جسده وأخذت يتبادلان القبلات

ورأت المجوز هذا النظر فانسحبت وهرت بالخروج من الغرفة، ولكن جوليت لمحتما فتخلصت من يدي عشيقها وأسرت نحوها وهي تقول :

— ها أنت ترين يا جدي .. ليس لديه من الوقت سوى ليلة واحدة ونهار واحد . لن أستطيع الذهاب معك الليلة .. هذا مستحيل . الأيام آتية يا جدي .. يجب أن نفضل الحى على الميت

ألفت المجوز نفسها وحيدة في شارع حالك الظلمة وكان البرد قارساً والأنوار جميعاً مطفأة تحذيراً للقوم من حملة جوية مقبلة، وكانت تتمتع في أثناء سيرها قائلة :

— الحياة تتطلب الحياة ؛ والأحياء في حاجة إلى الأحياء ؛ ويأوي لنا على من مات من الناس ... الكل ينسون الأموات

حتى رواد دار الصور المتحركة أظهر واجهودهم بشكل واضح، ففي تلك الليلة لم يكن المتفرجون سوى عدد يمد على الأصابع ... لقد مل الرواد قصة الفتاة الأتراسية ومطاردها

وجلس المجوز في مقعدها بين المقاعد الفارغة، وكأنها ملك من الملوك أمر بعرض رواية من الروايات لتعته الخاصة . وعند ما ظهر حفيداها على

ما يمبر عن هذا الاعتقاد لا لشيء إلا لأن تلك المجوز هي جدة سيدتها وصاحبة نعمتها

وحان وقت تناول المشاء فدعيت المجوز إليه ، ولكنها عند ما وجدت نفسها في قاعة الطعام جالسة أمام مائدة عظيمة إلى جانب حفيدتها وصديقاتها الفنانات شعرت بانقباض شديد وبأنها بعيدة عن الجو الطبيعى الذى ألفته بمرأ شديداً

كانت تتناول الطعام بشهية حسنة ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تتحرق شوقاً لساعة انتهاء الجميع من تلك المهمة . وكانت لا تنفك بين آونة وأخرى تنظر إلى الساعة المعلقة بالحائط كأنها تمنجل سيرها وحوالى الساعة الثامنة أجهت جوليت نحو

جديتها وقالت :

— لا داعى للمجلة يا جدي فما زال لدينا متسع من الوقت

وما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى ارتفع فى المنزل صوت ضجيج عال وأجراس كثيرة ، ثم سمع من قرب صوت رجال مقبلين ، وأقبلت الخادم تلهث وقالت :

— سيدتى ... لقد حضر السيد ... !

ولم تزد على ذلك حرفاً واحداً، ولكن المجوز فهمت الباقي فهضت من مكانها كسيرة النفس محزونة الفؤاد وقد اغبر وجهها وتقلصت عضلاته . وحينئذ أقبل شاب جميل الصورة يرتدي لباس ضباط الطيران فما كاد يتقدم خطوة واحدة فى الغرفة حتى أسرع جوليت إليه وكأنها تطير ولا تسير ...

— لاشك أنها زيارة غير منتظرة، ولكنى جئت

فوق أكتافهم وساروا بها بطوفون الشوارع
وسط الجموع الزاخرة

كان شعرها الرمادي الجميل قد انتثرت خصلاته
وتشمت وجعل يتحرك تبعاً لحركات الريح، ورفعت
كلتا ذراعيها في حماس شديد ثم جمعت تنشد في
صوت قاصف نشيد المارسييز ، فلما انتهت من
إنشادها حياها الجمهور بالهتاف والتصفيق

ولم يكن بطبيعة الحال بين هذه الجموع الهائلة
من الناس من يعرف من تكون هذه المعجوز
الشمطاء . غير أن مجرد وجودها بينهم أثار فيهم
ذلك الاحترام الغريزي الذي توحى به الشيخوخة
دائماً ، وكان بعضهم يرى فيها رمزاً حياً لعظمة
الثورة الكبرى وأثراً من آثارها ظهر فجأة بعد
فترة من الزمان تزيد على القرن ...

ولم يمض وقت طويل حتى انفض الجمع ووجدت
المعجوز نفسها منتصبية على قدميها وسط الشارع
وحيدة ...

أين الجموع الحاشدة ؟ أين البنادق التي كانوا
يلوحون بها في الفضاء ... ؟ أين الشباب المتحمسون
الذين رفعوها فوق الأعناق ... ؟ لقد اختفى الكل
وليست تدري أين ولا كيف اختفوا

إنها الآن تسير في الشارع الملكي إلى جانب
تلك المطاعم النموذجية الكثيرة ... وها هي حانة
مكسيم الشهيرة أمامها وقد خرج عمالها إلى الشارع
يوزعون أقذاح الخمر على المارة تبرعاً من أغنياء القوم
واحتفالاً بذلك اليوم السعيد

وتقدمت في السير قليلاً فوجدت نفسها بين
جماعة من الجنود الأمريكيين يتبادل وإياهم الحديث

الستار جمعت مخاطبه في صوت هامس قائلة :
— أسمع الله مساءك يا صغيري لقد هجرناك
الجميع ونسوك . هكذا الحياة يا صغيري فلا تحزن .
واعلم ان جدتك المعجوز لن تتركك ولو تركك أهل
الدنيا بأسرها ... ستجدني هنا كل ليلة ... كل ليلة
يا صغيري المحبوب

أخذت الأخبار والأشاعات تنتشر في الساعات
الأولى من مساء اليوم بانتهاء الحرب وحلول السلام .
بدأت ضميعة خافتة غير مؤكدة ، واستتمت المعجوز
إليها دون أن تميرها أى التفات لأنها تعودت أن
تسمع أمثالها من قبل ، ثم انضح لها كذبها
بعد ذلك

ولكن لم يكذب محل وقت الغروب حتى تأكد
الناس من صحة تلك الأخبار إذ أعلنت الحكومة
خبر عقد الهدنة

وبغير أن تعرف المرأة كيف حدث هذا ولا في
أى وقت حدث وجدت نفسها وسط جمهور كبير
يدفعها تيار اندفاعه وتزاحمه نحو قلب المدينة دون
أن تستطيع لذلك وقفاً ودون أن تستطيع منه خلاصاً .
وسرعان ما سيطرت عليها روح الجماعة فمرت بها رجفة
الحماسة وانتقلت إليها عدوى الفرح فهتفت مع
الجماعات الهائفة التي كانت تملأ الشوارع

ووصلت إلى ميدان الكونكوردد . وكان
الجمهور يردد بأصوات كهزيم الرعد بعض الأناشيد
الوطنية وقد أخذ بعض أفرادهم يلوحون ببنادق
مأخوذة من الألمان كانت معروضة في الميدان
وأقبل نحو المعجوز جمع من الشبان فرفعوها

وأخيراً دخلوا جميعاً أحد المقاهي وظلوا نحو نصف ساعة في سرور ومرح يحسنون أكوام البيرة التي قدمتها المجوز إليهم ثم انصرفوا أما هي فقصدت إلى الحانة التي تعودت أن تلتقي فيها بالعم « كرانفيل » فيلسوف السوق فوجده جالسا جالسته الخالدة التي لا يغيرها خفيته وجلست إلى جانبه وطلبت لها وله زجاجة من زجاجات النبيذ، ولكنها ما كادت تفرغ من نصيبها من الخمر حتى شعرت بحاجتها إلى مسرة أكبر وأروع مما وجدت من أنواع السرور في تلك الليلة. ذكرت دار الصور بظلامها الذي يبعث الاطمئنان والسكينة في أشد النفوس اضطراباً خلافاً لكل ظلام عرفه الإنسان، ومناظرها الجميلة التي كانت في نظرها لا تقل جمالاً عن أجل ما عرف الإنسان من مناظر

ياله من شعور سار! وباله من سرور جارف ذلك الذي كان يستولى على حواس تلك المرأة أثناء هاتين الساعتين اللتين كانت تقضيهما جالسة على مقعد مرصع تتناجى، كأروع ما تكون المناجاة الروحية، مع حفيدها المحبوب ألبير! لا شك أنه لم يسمع بعد بذلك النبا السعيد الذي هز مشاعر الباريسيين عن بكرة أبيهم بل مشاعر الناس جميعاً في جميع أنحاء الأرض، ولكنها ذاهبة الآن إليه وسوف تسر إليه بذلك النبا ليأخذ نصيبه من السعادة مع الآخذين

التفتت إلى كرانفيل ثم قالت وهي تنهض من مكانها:

— طاب مساؤك يا كرانفيل. سأتركك الآن لأن حفيدي ألبير في انتظارى. مسكين هذا

كانت تحب الأمريكيين وقد عرفت أن هؤلاء الشبان منهم عندما رأت قبعاتهم، وقد أعجبها منهم حسن منظرم ودلائل الصحة البادية في وجوههم وفي حركاتهم، وروح المرح المتجلية من أحاديثهم وإشاراتهم، وذكرها أكثر من واحد منهم بحفيدها ألبير فتهفت بأعلى صوتها:

— لنحى الولايات المتحدة!

أما هم فكانوا يفهمون حركاتها وإشاراتها أكثر من فهمهم لكلماتها؛ غير أن هذا لم يكن يعينها في كثير ولا قليل، بل كانت تمتدأن كل ما يحتاج إليه المرء للتفاهم مع الأجانب الذين لا يفهمون لغته ولا يفهم لغتهم هو أن يتبادل الود معهم وأن يكون حسن النية. وكأن طرب المجوز ومرحها قد أثرا في الأمريكيين فصاروا يضحكون ويقهقهون كأنهم أطفال كبار

وتلمست المرأة موضعاً معيناً في ثوبها حيث وضعت كيس نقودها الذي حملت فيه كل رأس مالها؛ فلما اطمانت إلى وجوده في مكانه جملة تشير بكتفها يديها معبرة عن رغبته في دعوتهم للشراب على حسابها

غير أن الأمريكيين اعترضوا في أدب كثير واعتذروا من عند قبول دعوتها إذ أن فكرة السماح لامرأة أيا كانت بالاتفاق عليهم لم تكن اتروقههم ولكن المجوز صاحت في صوت قوى قائلة:

لا.. لا.. إنكم الآن في وطنى، في بلدى، وأنا أصر على دعوتكم؛ فإن رفضتم تلك الدعوة للتواضعة كان ذلك الرفض طعنة مؤلمة موجهة إلى. وما أظن أن إيلام امرأة مجوز مثلى يرضيكم ..

نمرض الليلة برنامجاً جديراً بالاعتبار
— ماذا ١٩

نظقت بهذه الكلمة مباحاً يكاد يكون باكباً؛
ثم أسندت جسمها المضي إلى الجدار المجاور وبدأ
على وجهها المغض شحوب كشحوب وجوه الموتى
وقد اتسعت حدقتا عينيها

وتطوع الحارس بتفصيل ما أجل فقال محاولاً
تخفيف وقع المصاب على المرأة

— لقد انتهى الأسبوع يا جدتي ونحن كما تعرفين
نغير برنامجنا كل سبعة أيام . إن الجمهور قد مل قصة
الازداسية الحسنة ومطاردها الألماني؛ ثم إن الله قد أنعم
علينا أخيراً بنعمة السلام فن الواجب أن نعرض
شيئاً يتناسب مع هذا المعنى الجديد في حياتنا. الناس
جميعاً يريدون من صميم أفئدتهم أن ينسوا الحرب
وشقاءها وأن يسمدوا أنفسهم؛ ونحن نمرض الليلة
لجمهورنا الباحث عن السرور والسعادة والمرح رواية
جديدة من روايات شارلي شابان؛ وأصدقك القول
يا جدتي أنه شريط سار فاذا شهدته فسوف تستغرقين
في الضحك

فأجابت في صوت يشبه الأنين :

— لن أراه بعد الآن ... لن أراه بعد الآن
ثم أخرجت من صدرها زفرة حارة عميقة وقالت:
— لقد قتلوه قتلة أخرى ...

كان منظر المرأة المتخاذلة داعياً لتجهم الناس
حولها ، فرأى الحارس منها لتفاقم الأمر أن يحاول
الترفيه عنها فأخذ يخاطبها قائلاً :

— رافى عن نفسك يا جدتي . أتقتلين نفسك

في ليلة كهذه الليلة لا تشئ إلا أننا غيرنا برنامج

الصبي ، إنه لا يستمتع بأجازة أو راحة بل يعمل
في كل الليالي

فشمّر الفيلسوف في هذه اللحظة بقوة تدفمه
إلى توجيه نصيحة لصديفته فقال :

— إنك تقتلين نفسك . إنك تنتحرين دون
شك . تأكلين قليلاً وتشربين كثيراً . ترمين نفودك
بغير حساب . ولا شك عندي إذا استمرت الحال على
هذا النوال أنك ستفقرين رأس مالك كله . ما هذا
يا امرأة ؟ لقد رأيتك بالأمس تبثعين نصف بضاعتك
اقتراضاً ؛ ويخيل إلى أنك في الأسبوع الأخير عشت
أعواماً وأعواماً

ولكنه عاد بعد تلك المحاضرة فابتسم ابتسامته
الساخرة التي قلما فارقت ثغره وأردف قائلاً :

— على أنه إذا كان هذا يروقك وتجدين
فيه سعادتك ... فلا بأس

ثم همز كتفيه كما تعود أن يفعل دائماً
وأسرعت المرأة قاصدة دار الصور . أسرعت
على الرغم من شعورها بالتعب المضي وعلى الرغم من
أن قدميها كانتا لا تطاوعانها على السير؛ وكانت تمنى
نفسها في أثناء سيرها بجلسة مريحة في تلك القاعة
المظلمة الهادئة الجليّة ، وكان الظلام سائداً على المدينة كما
كان يسودها قبل إعلان الهدنة وقد انتشرت في أنحائها
جماعات من الهاتفين والراقصين وفرق الموسيقى

واقتربت أخيراً من مدخل الدار فحياها الحارس
وهو يضحك ، ولم يضحك ؟ أليس سعيداً ؟ أليس
الجميع سمداء في هذه الليلة ؟

ولكنه كف عن الضحك فجاء كأنه تذكر
شيئاً لم يكن يذكره وقال :

— لقد ترك حفيدك العمل هنا وذهب ونحن

إحساناً ؟ إنه يوم عيد وسوف يرى الناس شيخوختها
المحطمة وعلامات الأسى والتعب بادية عليها فلا
يتأخرون عن مساعدتها

ولكنها سرعان ما استعادت كبرياءها المفقودة
فقالت مخاطبة نفسها :

— إننى لم أسأل الناس إحساناً قبل الآن ؛
وأظن أن هذا وقت متأخر غير مناسب للبداية فى
هذه الدلة ومع ذلك يجب أن أراه ... يجب أن أراه
مهما كلفنى الأمر

وتقدمت قليلا غير أنها توقفت بعد لحظة
قصيرة واستندت إلى جذع شجرة من الأشجار
المنتشرة على طول الطريق ؛ وكانت أبواب الحانات
والمراقص المقابلة تلمع فى ناظريها كأنها أبواب
الأفران المستمرة ؛ وكانت الأصوات النبعثة
من الفرق الموسيقية المنتشرة فى كل مكان تسبغ
على الجوارح من المرح والسعادة
وتنهدت للمجوز قائلة :

— يا لبعده المكان ... يا لبعده !

ولحظة قصيرة رأت من خلال الدموع التى
ملأت عينيها شيئاً غريباً ... رأت أمامها شبح
جندي يرتسم ... جندي يرتدى ثوباً أبيض ناصع
البياض يغطيه من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه

يا للغرابة ... ! إنه جسم شفاف لا يحجب ما
خلفه من مرئيات ؛ وهما هى تستطيع أن ترى أشجار
الافريز المقابل واضحة كل الوضوح على الرغم من
اعتراض جسمه للمسافة القابعة بينها وبين تلك
الأشجار ... كأنه جسم من الزجاج أو من البخار

الدار ؛ هذا كثير يا سيدتى وعلى كل حال سوف أرى
ثم أتجه نحو بائمة التذاكر وسألها عن شيء ما
فسرعان ما قدمت إليه كراسية صغيرة أخذ يفحصها
على ضوء الصباح القريب وهو يتمتم قائلاً :

— فلنر هذه القصة الملأى بالقباء قصة الأتراسية
أين هى الآن ؛ يجب أن تكون معروضة فى مكان
آخر ... شريط عفن هو مجموعة من السخافات ..
أين هو الآن ؟ آه ها هو

ثم اقترب من المرأة وأفضى إليها باسم دار من
الدور الحفيرة وسمى لها الشارع الذى تقع به

— دار بعيدة قليلا يا سيدتى ولكنك هناك
سترين حفيدك. ثم ابتعد عنها ولم يعد يديرها أى
التفات إذ أن الجمهور بدأ يقبل نحو الدار لمشاهدة
البرنامج الجديد

وعادت المرأة مرة أخرى إلى الطريق وأخذت
تسير وقد استوت عليها فكرة واحدة فجاءت
تتمتم قائلة

— لقد قتلوه مرة ثانية .. قتلوه فى هذا اليوم
الذى يشمر فيه الجميع بالسعادة

وتحسست كيس نقودها المرة الثانية فى هذا
المساء فلم تجد فيه إلا القليل من القطع النحاسية
مما يكاد يكفى لشراء تذكرة واحدة فى دار «السينما»
التي تمرض الرواية . ولكنها كانت متعبة ، كانت فى
أشد الحاجة إلى الراحة والمكان بعيد فإذا تصنع ؟
لا شيء ... ليس فى وسعها إلا أن تسير ، وكيف تسير
وقواها خائرة ... فليكن ... يجب أن تسير ...
قدماها لا تطاوعانها ...

وصرت بذهنها فى تلك اللحظة فكرة غريبة
ماذا يحدث لو أنها مدت يدها وسألت الناس

ها هو ذا الجندى يشير إليها إشارة ممناها أن تتبعه، انتظرنى ... أنا آتية ... ها أناذى آتية يا حبيبى ...
وها هو ذا يتقدم فى السير، وها هى تحاول بكل قواها (السويس) محمد محمود درارة

الى راسى اللغة الفرنسية فى جميع سنى الدراسة ، الى رافعى الالهة بوظائف
البنوك والشركات الاجنبية ، الى المجردة الذميمة برغبونه فى تفهم أديب الفرنسية
وأمرارها عن طريقه المقارنة مع افقاه النظم : كتاباته جديده :



استكملت فى التأليف بمفردات ، محادثات ، رسائل ، موضوعات ،
هذه كتاباتى التى لم أكتبها فى الماضى ، الأولى عن طريق المقارنات
لغات ثلاث ، والثانى لم يكتبها لى فى الماضى ، فهذه الكتابان اللذان تسم
على كل يوم يفتك بكون قسائمه ، كتابان ليس الكتابين من كل منهما مجلد

أن تنفذ مشيئته فلا
تستطيع

— إننى متعبة

يا ولدى ... جعى

مضى ... أطرافى

تنضح بالدم ... لا

أستطيع أن أتبعك ...

إن المسافة طويلة ...

طويلة

ثم ارتقت على

جذع الشجرة فى غير

توازن ، فأبجه إليها

الجندى وقد بدت على

وجهه الجليل علامات

الحزن العميق ، فرقت

ناظرها إليه وقالت

فى صوت هامس وفى

لهجة تم عن الاعتذار

الشديد :

— لا تحزن ...

لا تحزن يا بنى ولا

تغضب ... آه لو تعلم

مقدار ما أعانى ومقدار

عجزى عن الحركة ، إذن

لعذرتى ... ولكن

ثق ... ثق أن جدتك

لن تتركك أبداً . ألبير